قدّمت هذه الورقة العلمية في الندوة العلمية الموسومة" **النظريات اللسانية المعاصرة–الاتجاهات والتطبيقات**"، يوم: 06 مارس 2024م، بقسم اللغة العربية، كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة.

عنوان المداخلة: **اللسانيات في الثقافة العربية –من أزمة التلقي إلى أزمة التلقين–**

Linguistics in Arabic Culture from the crisis of reception to the crisis of indoctrination

د/ نعيمة روابح محاضر –أ– بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

naima.rouabah@univ-emir.dz

الملخص بالعربية:

يعاني الخطاب اللساني العربي الحديث أزمة أسس؛ وهي أزمة في المنطلقات الفكرية والنظرية والمنهجية التي تؤسس مجالا معرفيا معيّنا وتحدّد معالمه، هي أزمة ذات طبيعة إبستمولوجية نتج عنها عوائق كثيرة منها عدم تطور اللسانيات في العالم العربي، ولتجاوز هذه العقبات ومعالجتها توجّب على المهتمين من الباحثين التنقيب والبحث باعتماد أدوات إجرائية تبدأ من الوعي بالأسس المعرفية والخلفيات الإبستيمولوجية التي قامت عليها النظريات اللسانية المعاصرة.

وتحاول هذه الورقة البحثية معرفة لحظات تشكّل الخطاب اللساني في الثقافة العربية وأزمة التلقي، مع محاولة تقديم مقترحات لتجاوزها.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات، الثقافة العربية، التلقي، التلقين.

Abstract :

Modern Arab language is suffering from a crisis of foundation, a crisis of intellect, theory and methodology that establishes and defines a particular field of knowledge, to overcome these obstacles, interested researchers must explore and research using procedural tools starting with an awareness of the

epistemological foundations and backgrounds on which contemporary linguistic theories are based.

This paper attempts to trace the stages in which the lingual discourse was shaped in Arab culture and the crisis of receipt that accompanied it, while making proposals to overcome it.

Key word: linguistic, Arabic culture, receiving, indoctrination.

أولا: تاريخية تشكّل الخطاب اللساني في الثقافة العربية

لقد غدت اللسانيات رائدة العلوم الإنسانية، وجسراً حقيقيًّا أمام باقي العلوم الإنسانية بجميع فروعها (علم اجتماع، وتاريخ، وفلسفة، وأدب...)، فقد تحقق لنفسها طابع الشمول، والتفرد، والخصوصية، حتى أصبح من "فضول القول لدى ذوي العلم والرجحان أن يتحدث المرء اليوم عن منزلة اللسانيات ووجاهة شأنها، فلو فعل لكان شأنه لديهم شأن من ينوه بالرياضيات الحديثة، بين أهل العلوم الدقيقة، أو شأن من يمتدح قيمة التحاليل العضوية وكشوف الأشعة في حقل العلوم الطبية"[1].

إن البحث في تاريخية تشكّل الخطاب اللساني في الثقافة العربية هو بحث في زمانية هذا العلم الوافد من الغرب مع حملة نابليون بونبارت (الثورة الفرنسية)، ويطلق البعض على هذا النوع من الخطاب بالخطاب اللساني النهضوي الذي يراد به" كل الكتابات التي ظهرت في الفترة الممتدة ما بين بداية النهضة العربية ومنتصف القرن العشرين، يبدأ بعمل **رفاعة الطهطاوي** (التحفة المكتبية لتقريب قواعد اللغة العربية 1869م) لينتهي مبدئيا مع ظهور أول مؤلف عربي في علم اللغة الحديث في بداية الأربعينات من القرن العشرين مع **علي عبد الواحد وافي**".[2]

أما الخطاب اللساني المعاصر الذي هو مقصدنا في هذه الدراسة فالمراد به" الخطاب الذي تعكسه الكتابات اللغوية التي تستند نظريا ومنهجيا على المبادئ التي قدمتها النظريات اللسانية في مختلف اتجاهاتها الأروبية والأمريكية في إطار ما أصبح يعرف باللسانيات العامة".[3]

---

[1] - اللسانيات وأسسها المعرفية، عبد السلام المسدي، الدار الوطنية للنشر، تونس، 1986م، ص 7.

[2] - اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، مصطفى غلفان، المغرب، د ط، د ت، ص 90.

[3] - المرجع نفسه، ص 84.

هذه النظريات اللسانية التي تأثر بها الباحثون العرب فظهرت أفكارها ومفاهيمها النظرية والمنهجية في مؤلفاتهم، على نحو ما نجده عند **إبراهيم أنيس** في كتابه (الأصوات اللغوية)، و**رمضان عبد التواب** و**تمام حسان** وغيرهم من اللسانيين الذين حاولوا تقديم هذا المعطى اللساني الجديد إلى القارئ العربي للاستفادة منه والانفتاح على هذا الفكر الذي يعد تحوّلا معرفيا في ساحة البحث اللساني.

في ضوء استقراء الخطاب اللساني العربي المعاصر يظهر أن هناك ثلاثة أنواع من الخطابات اللسانية العربية: الخطاب اللساني التمهيدي، والخطاب اللساني التراثي، والخطاب اللساني المتخصص، ولكل نوعٍ من هذه الخطابات أسسه ومرجعياته وخلفياته النظرية والمنهجية التي تقف وراء تشكّله وتبنّيه هذا الاتجاه، وفيما يلي عرض موجز لهذه الأنواع:

أ-الخطاب اللساني التمهيدي:

وهو نوع من التأليف الذي يُقصد من ورائه التقريب والتسهيل، وهو" طريقة في التأليف لا يمكن لأي علم أن يذيع وينتشر من دونها؛ لذلك من الطبيعي أن يشكّل هذا النوع من التأليف إحدى الاهتمامات الأساسية لنشر العلوم وتقريبها إلى القرّاء"،[1] وموضوع الخطاب اللساني التمهيدي يتشكّل أساسًا "مما تقدّمه اللسانيات الحديثة من مبادئ ومناهج جديدة في دراسة اللغة البشرية بصفة عامة، وتعتمد المنهج التعليمي...وغايته تقديم اللسانيات ومفاهيمها النّظرية والمنهجية للقارئ العربي.."."[2]

فهو إذن خطاب تمهيدي تعليمي، يستعين بالآليات التعليمية لإطلاع القارئ العربي على النظريات اللسانية الغربية، فيتّخذها موضوعا له، ويتبع خطوات المنهج التعليمي من شرح وتفسير وتقديم الأمثلة، وغيرها من الوسائل التعليمية بهدف إيصال هذه المعارف إلى الطلبة في الجامعات والمعاهد وجمهور المتلقين.

ب-الخطاب اللساني التراثي:

يهتم هذا النوع بالقضايا اللغوية التي تناولها القدماء، ويعمل على تقديمها في ثوب جديد للمتلقي على أساس الإشادة بما قدّمه القدماء وأيضا التعريف بهذا الموروث العلمي والحضاري الذي كان له السبق التاريخي في دراسة الظاهرة اللغوية، لذلك فهو يتّخذ "التراث اللغوي العربي القديم في شموليته موضوعا لدراساته المتنوعة، أما المنهج ...فهو إعادة

[1] - اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، حافظ اسماعيلي العلوي، ص 113.
[2] - اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، مصطفى غلفان، ص 91.

القراءة ..وأهدافه قراءة التصوّرات اللغوية العربية القديمة وتأويلها وفق ما وصل إليه البحث اللساني الحديث، والتوفيق بين نتائج الفكر اللغوي القديم والنظريات اللسانية الحديثة، وإخراجها في حلّة جديدة تبيّن قيمتها التاريخية والحضارية".[1]

ولعل من أبرز المؤلفات التي حاولت إبراز القيمة المعرفية التي بلغها الدّرس اللغوي العربي القديم بقضاياه وتصوّراته، من خلال إعادة قراءة هذا التراث ومحاولة التوفيق بينه وبين ما طرحه الدرس اللساني الحديث، كتاب (الألسنية العربية عند النحاة العرب) لصبحي الصالح، و(تاريخ الفكر اللّساني في الحضارة العربية) لعبد السلام المسدي، و(النحو العربي والدرس الحديث) لعبده الراجحي، وغيرهم.

ج–الخطاب اللّساني المتخصّص:

يحيل هذا المصطلح إلى اهتمام اللسانيين العرب وسعيهم للنهوض بالدّراسات اللغوية في العالم العربي الحديث وتقريبه من معطيات اللسانيات الغربية، فالخطاب اللّساني المتخصص يتخذ" اللغة العربية موضوعا له...ويتم النّظر للغة العربية باعتبارها نسقا صوريا أو وظيفيا يمكن وصفه أو تفسيره في مختلف المستويات اللغوية".[2]

ومن الباحثين العرب الذين عملوا على مراعاة المبادئ التي قامت عليها اللسانيات الحديثة، وهو ما انعكس في مصنّفاتهم كالفاسي الفهري وعبد السلام المسدي، أحمد المتوكل، تمام حسان،....وغيرهم.

ثانيا: أزمة تلقي اللسانيات في الثقافة العربية

يلاحظ المتتبع لخريطة البحث اللساني في المجال التداولي العربي، أن اللسانيات ما تزال "ذلك المجهول الذي يثير فينا ريباً وشكًّا، وتوجُّساً وخوفاً، أكثر مما يثير فينا نزعة –ولو فضولية–لمعرفة موقفنا من واقع الثقافة، والعلم، والمعرفة في العالم".[3]

فعلم اللسانيات لم يحظَ بعدُ بالأهمية التي حظي بها في الغرب؛ إذ على الرغم من "مرور نصف قرن، على معرفته، والعلم به، والبحث فيه، وتدريسه في الجامعات العربية، ما زال علماً غريباً على جمهور المثقفين في الوطن العربي، ناهيك بجمع غفير من القائمين على تعليم اللغة العربية في المدارس والمعاهد، وتلك –لا شك–آفة من آفات انفصال الجامعات العربية عن مجتمعها".[4]

إن الواقع الراهن للسانيات في ثقافتنا العربية –يقول **حافظ اسماعيلي العلوي**–أثار، وما يزال يثير، أسئلة كثيرة عن الأسباب الكامنة وراءه؛ في زمن أصبحت فيه اللسانيات رائدة العلوم الإنسانية، وإليها يسند دور قيادتها، وهو ما قاد ثلة

---

[1] - المرجع نفسه، ص 92.
[2] - المرجع السابق، ص 92.
[3] - قضايا لسانية وحضارية، منذر عياشي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1991م، ص 1.
[4] - دراسات في اللسانيات التطبيقية، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، 2000م، ص 7.

من الباحثين –لسانين وغير لسانيين–إلى القول بوجود أزمة في البحث اللساني العربي، "وتتمثل هذه الأزمة في مجالاته النظرية، والمنهج والموضوعات البحثية، والجوانب المؤسسية المتصلة بأقسام تدريس اللسانيات، وبالأستاذ، وبتدريب الطلاب، كما نجد أن هذا العلم لا يزال هامشيًّا مقارنة مع العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى بالرغم من الازدياد المطرد للمتخصصين فيه، وبالرغم من الأهمية المركزية لموضوعه: اللغة في المجتمع".[1]

لقد شملت الأزمة كل مجالات البحث اللساني وكل القطاعات المرتبطة به، وهذا ما يعبر عنه أحد الباحثين بالقول: "إننا نشكو من أزمة لغوية حادة تلطخ جبيننا الحضاري، أزمة على جميع الصعد تنظيراً وتعليماً، نحواً ومعجماً، استخداماً وتوثيقاً، إبداعاً ونقداً".[2]

إن الحديث عن اللسانيات في الثقافة العربية وربطه بمصطلح (أزمة) يقتضي أن تكون اللسانيات العربية قد قطعت أشواطاً بعيدة في كل المجالات، وبلغت حدًّا من التراكم، ثم عجزت عن بلوغ مرحلة أخرى تفك المأزق الذي بلغته، إلا أن الواقع يقول إن اللسانيات في ثقافتنا ما زالت تبحث عن نفسها وتتلمس طريق الانطلاق؛ وحتى إن انطلقت في كثير من الأحيان، فقد كان ذلك في اتجاه غير مرغوب فيه.[3]

إن أغلب الإشكالات المثارة حول أزمة تلقي اللسانيات لا تخرج، في عمومها، عن المحددات العامة التي واكبت مراحل التلقي وخصوصيات كل مرحلة على حدة، الأمر الذي شكَّل لدى المتلقي العربي ريبة على هيئة صراع نفسي حضاري، تعبر عن مظهر من مظاهر التلقي تلك، ونتيجة من نتائجه المباشرة.

وقد زاد من تعميق الإشكالات تلك، التقاعس الذي ظل يطبع البحث اللساني العربي في المراحل الموالية، وهذا يفرض ضرورة التمييز في عوائق البحث اللساني في الثقافة العربية الحديثة بين نوعين اثنين من العوائق[4]:

1– عوائق موضوعية ذات أبعاد نفسية حضارية: يمكن إجمال هذه العوائق في:

1–1–صورة الغرب في المتخيل العربي:

يرجع هذا الصنف من العوائق إلى سبب مباشر يكمن في الصورة التي ترسخت في متخيل المتلقي العربي عن الغرب، وما تولد عنها من ردود فعل متشنجة زكَّت حضور بعض الأعراف اللغوية المترسخة في الثقافة العربية، وكما يقول

---

[1] - أزمة اللسانيات في العالم العربي، أحمد محمود عشاري، ضمن فعاليات ندوة اللسانيات وتطورها في العالم العربي، الرباط، 1987م، ص 9.

[2] - الثقافة العربية وعصر المعلومات، نبيل علي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 265، 2001م، ص 236.

[3] - لسانيات الظواهر، وباب التعليق، عبد القادر الفاسي الفهري، ضمن فعاليات ندوة البحث اللساني والسيميائي، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1984م، ص 31.

[4] - اللسانيات في الثقافة العربية بحث في إشكالات التلقي، حافظ إسماعيلي العلوي، ص 142.

إيرل ديفيس (Earl Davis): "إن الأحكام المسبقة، والصورة المقَوْلَبَة، والتشبيهات ليست إلا جوانب جزئية من مصطلح أساسي أكثر شمولاً هو المواقف، سواء أكانت هذه المواقف في حالة الإدراك، أو في حالة الانفعال، أو في حالة النزوع".[1]

فإذا كان **الآخر** في ثقافتنا المعاصرة، هو الغرب، فإن مفهوم (**الآخر**) اتخذ صوراً مختلفة عبر مراحل تاريخية متباينة، ويبدو أن (الصدمة الاستعمارية) هي التي جعلت **الآخر** في الثقافة العربية غرباً بعد أن كان متعدداً، فقد كتب **عبد الله العروي** (من هو الآخر، ومن أنا؟/ 1952م)، ووسم **سلامة موسى** أحد مقالاته ب (لماذا هم أقوياء؟) والـ(هم) لم تكن بأية حاجة للتحديد، (إنهم) (هم) الآخرون الذين هم دائماً إلى جانبنا، وفي ذواتنا، حاضرون. [2]

وهو ما لخصه **تودوروف** (T. Todorov) بقوله: "من المهم (...) إدراك أن صورة الآخر تحيل إلى واقع من يبنيها وتعبر عنه، أكثر مما تحيل إلى واقع مَنْ بُنيت صورته"،[3] ويضيف في موضع آخر: "إن معرفة الآخر ترتبط بهويتي الخاصة بي، والمعرفة بالآخر تحدد معرفتي بذاتي، وكل إضافة في معرفة الآخر هي إضافة إلى معرفة الذات".[4]

إن صورة الغرب، إذن، على الرغم من تعقدها وتركيبيتها واختلافها، تأتلف وتتوحد لتشكل "صورة واحدة في العقل العربي تتراوح بين اللاوعي الجماعي، والتحليل الحضاري أو الأنثروبولوجي، غير أن الجامع أو المنطلق هو الجرح العربي الذي لم يندمل"[5]. فكيف ساهمت هذه الصورة في التأثير على تلقي اللسانيات في الثقافة العربية؟

2-1-اللسانيات علما غربيا:

إننا اليوم مطالبون بالاعتراف بأن اللسانيات الحديثة هي محض العقلية الغربية التي أنتجتها،[6] وعليه فإن البحث اللساني لا يمت بصلة إلى اللغة والثقافة العربية واللغة العربية؛ لأنه "بحث أوجدته ظروف اللغات الأوروبية التي تختلف

---

[1] - صورة الغرب في الكتب المدرسية اللبنانية، نمر فريحة، ضمن كتاب (باحثات)، إصدار تجمع الباحثات اللبنانيات، 1998م-1999م، ص 287، 288.

[2] - اللسانيات في الثقافة العربية بحث في إشكالات التلقي، حافظ إسماعيلي العلوي، ص 143.

[3] - المرجع نفسه، ص 144.

[4] - المرجع نفسه، ص 144.

[5] - صورة الغرب في المجتمعات العربية، المطران جورج خضر، ضمن كتاب (باحثات)، إصدار تجمع الباحثات اللبنانيات، 1998م-1999م، ص 256، 257.

[6] - قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، مازن الوعر، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، دمشق، 1988م، ص 21.

في انتماءاتها وتكوينها وبيئاتها وشعوبها المتكلمة بها وتأريخها عن العربية وظروفها، اختلافاً كبيراً، يجعلنا في موقف رافض لكل ما يراد من الباحثين المعاصرين العرب أن يسلكوه، أو يتعاملوا به مع العربية".[1]

وقد عبّرت عديد الدراسات لسانية كانت أم غير لسانية، عن فكرة أن اللسانيات علمٌ غير نافع، من منطلق أن أهدافه استعمارية معللين "أن نشأة الدراسة اللغوية في أوروبا ما يدل على أن للاستعمار، وحملات التبشير المسيحية دورا رئيسا ساعد على ظهورها وانتشارها، وتطورها، للوصول إلى شعوب العالم التي يقصدونها، ويرجون من ورائها السيطرة والنّفوذ".[2]

ومنهم من دعا إلى ضرورة إبعاد العربية عن مناهج اللسانيين المحدثين التي تتسم بالتناقض، ذلك "أن العربية، مع ما وصل إلينا من دراسات في اللسان العربي، وقوامة هذه الدراسات، وإيفائها بما يحتاجه البحث المعاصر من معرفة، وفهم، وإدراك لما كانت عليه، وما آلت إليه الدراسة اللغوية الحديثة –ولا سيما الأوروبية– ينبغي لها أن تكون بمنأى عن أن يقحمها الباحثون العرب في تلك المآزق والمجاهل التي لا تخرج منها إلا بتناحرات وتناقضات مذهبية، ليست العربية بحاجة إليها، ولا هي بماتّة بصلة إليها، فكيان العربية وشخصيتها، وأصولها، وضوابطها، ونصوصها الأصلية وآثارها الواصلة إلينا، قد اكتسبت درجة الاكتفاء الذاتي، وحملت معها عناصر بقائها وديمومتها واستمرار قوتها، وسر حيويتها وحركتها وإنعاشها، ببقاء كتاب الله العزيز، وبهذا التراث العظيم الواصل إلى أبنائها مدوناً ومحفوظاً ومدروساً، مكوّناً زاداً ثرًّا ومَعيناً لا ينضب، يستمد منه أبناؤها ما هم بحاجة إليه من التغذية والتوعية والتثقيف".[3]

ولعب الاستشراق أيضا دورا في تعميق الفجوة بين العربي وتلقيه للسانيات، وهي من المشكلات التي أرقت البحث اللساني في ثقافتنا وحالت دون أخذه الموقع الصحيح، يقول **منذر عياشي**:" لقد وجد البحث اللغوي العربي نفسه تبعاً لعدد من الممارسات الاستشراقية، التي أرادت فرض سيطرتها عليه، والانحراف به عن النهج العلمي، بغية التشكيك في الجدوى التاريخية للإنتاج المعرفي في الحضارة العربية الإسلامية. كما وجد نفسه أيضاً تبعاً لعدد كبير من النظريات والمناهج والمدارس الغربية. وذلك لأنه لا يملك نظرية خاصة به مستوحاة من الحضارة التي يريد أن ينطق باسمها".[4]

ويدعم هذا الموقف ما ذهب إليه **عبد السلام المسدي** في ربطه بين أهداف الاستشراق وبين الدراسات اللسانية في دراسة اللهجات، يقول:" لا مهرب لنا من الإقرار موضوعيًّا بأن بعضهم (يقصد المستشرقين) قد عمل على

---

[1] - الألسنية المعاصرة والعربية، رشيد عبد الرحمن العبيدي، مجلة الذخائر، العدد 1، 2000م، ص 31.
[2] - علم اللغة بين القديم والحديث، عبد الغفار حامد هلال، ط3، 1989م، ص 70.
[3] - الألسنية المعاصرة والعربية، رشيد عبد الرحمن العبيدي، ص 25.
[4] - قضايا لسانية وحضارية، منذر عياشي، دار طلاس، ط1، سوريا، 1991م، ص 15.

ازدهار علم اللهجات العربية بباعث إما سياسي غايته استعمارية، وإما عقائدي يهدف إلى تقليص البعد الديني والوزن الروحي الذي للعربية عند أهلها، وإما مذهبي يرمي إلى نقض التركيب الهرمي في المجتمع انطلاقاً من دكّ بنيته الفكرية".[1]

ومنهم من يربط بين الاستشراق واللسانيات ربطا آليا، فينظر إلى اللسانيات على أنها لباسٌ جديد للاستعمار، وهو ما عبر عنه **محمد حسين الأعرجي** بقوله:" علينا أن نُفرِّق بين مدرستين في الاستشراق: مدرسة أوروبا الغربية، ومدرسة أوروبا الشرقية. فإذ نجد أن المدرسة الغربية لا تخلو من أهداف استعمارية، بقيت عالقة بها إلى اليوم، ولكن بلبوس آخر، يُسمَّى لسانيات، تركَّز على دراسة اللهجات المحلية، وبنيوية تنتهي إلى قتل حاسة تذوق الجمال الأدبي حيناً آخر".[2]

إضافة إلى ما سبق، فقد رُفضت اللسانيات بحجة أنها منهج بحثي خاص بلغات أخرى؛ ولذلك من العسر والتعذر أن يُطبق هذا المنهج الذي وضع مناسباً للغة –أو لغات ذوات سمات خاصة–على لغة امتلكت في ذواتها قوة خلودها وبقائها راسخة على خصائصها،[3] وأن أي تطبيق من هذا القبيل يُعدّ انصرافاً عن البحث اللغوي العربي الأصيل، وهذا الذي صرّح به **العبيدي** في قوله: "ولعلني لا أبالغ إذا قلت: إن ثمة غلوًّا محموماً ينهد به نفرٌ من المغرمين بالبحث الألسني الأوروبي في هذا القرن، يهدف إلى الانصراف عن البحث العربي الأصيل إلى الألسنية الحديثة، ولا سيما المعنيين بالعربية، ممن تعلموا شيئاً عند الغربيين، أو اطَّلعوا على ما جاءت به الترجمات من كُتُب البحث اللساني في فرنسا وغيرها من أقطار أوروبا بعد سوسير (1913م)، وهو بحث مقحم على العربية، بعيدٌ عن أنفاسها وخصائصها، وإدخال أهلها في ميدان غير مناسب لها، ولا متلائم مع طبيعتها، في الوقت الذي كانت الدراسات العربية الأصيلة قد آتت أكلها، وخدمت الحرف العربي خدمة لا مثيل لها، وأبرزت خصائص هذه اللغة إبرازاً متكاملاً، لا يحتاج معه أبناؤها إلى مزيد من المداخلات والتعقيدات التي يتسم بها البحث الأوروبي الحديث".[4]

وعن حاجة العربي إلى نظرية يوظّف من خلالها معارفه توظيفا صحيحا، لا نجد في هذا الصدد –يقول منذر عياشي– خيرا من قول Emmon Bach لتوضيح هذه الفكرة:" يجب أن لا تكون النظرية مكونة من قائمة تجتمع فيها العناصر، ولكن يجب على النظرية أن تظهر بشكل أو بآخر، كيف تتآلف هذه العناصر".[5] فخير ما

---

[1] - اللسانيات وأسسها المعرفية، عبد السلام المسدي، ص 16.
[2] - أهداف الاستشراق ما لها وما عليها، محمد حسين الأعرجي، مجلة المدى، العدد 31، سوريا، 2001م، ص 17.
[3] - ينظر: الألسنية المعاصرة والعربية، رشيد عبد الرحمن العبيدي، ص 22.
[4] - المرجع نفسه، ص 22.
[5] - ينظر: قضايا لسانية حضارية، منذر عياشي، ص 13

يفيد في بناء النظرية هو معالجتها معالجة منهجية ترتبط فيه بالتطبيق، وذلك بوضعها على محك التجربة، وقد حدد Karl Popper أربع مراحل توضع من خلالها النظرية على المحك:[1]

-المقارنة المنطقية للنتائج بين بعضها بعضا، وبهذه المقارنة نتمكن من امتحان التماسك الداخلي للنظام.

-بعدها يأتي البحث، واختيار شكل النظرية المنطقي، يهدف هذا البحث إلى تقرير نوع النظرية، أهي ذات صبغة تجريبية أم مجرد حشو من الكلام.

-يمكن في المرحلة الثالثة عقد مقارنة للنظرية نفسها مع نظريات أخرى، والغرض هو التحقق مما إذا كانت النظرية تنطوي على تقدم علمي.

-وآخر مرحلة، توضع النظرية تحت التجربة، وذلك بتطبيق المنهج التجريبي على النتائج التي نستخلصها.

2- عوائق ذاتية مرتبطة بطبيعة البحث اللساني في الثقافة العربية:

يقول **ابن خلدون:**" اعلم أن مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعاليم وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك".[2]

يمكن إجمال العوائق الذاتية التي تطرحها اللسانيات العربية في الآتي:

2-2- اللسانيات وعوائق التلقي:

يقول **المسدي** متحدّثا عن ارتباط العربي بلغته: "فعن هذا الواقع الحضاري المعرفي نشأت لدى العربي رؤية من القداسة تجاه لغته النوعية وتجاه علمنة اللغة ذاتها، كما نشأ سياج من المحظورات ترسَّخت بموجبه عقدة الاستغناء"[3]. فأين تظهر هذه القداسة؟ وكيف أثَّرت سلباً في تلقي اللسانيات؟

إذا كانت اللغة وسيلتنا لإدراك العالم، فإن المعادلة تنقلب هنا ليصبح إدراكنا للعالم هو ما يتحكم بشكل أو بآخر في قضايا لغتنا ونظرتنا إليها ويحدد أفق انتظارنا؛ فاللغة العربية ترتبط بكيان المتلقي العربي ارتباطاً لا يُضاهى، هذا الارتباط نابع من اعتبارات دينية، وحضارية، ونفسية.

2-2-1-المصطلحات اللسانية:

---

[1] - ينظر: المرجع نفسه، ص 14.

[2]- المقدمة، ابن خلدون، ص 531.

[3] - الفكر العربي والألسنية، عبد السلام المسدي، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية، ص 12

أولى العقبات التي صنّفت من الإشكالات العديدة التي تقف بين المتلقي العربي وبين المنجز اللساني الغربي هي المصطلحات اللسانية وطريقة نقلها إلى العربية، وكلنا على دراية أن هذه المصطلحات هي مداخل العلوم "ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى، فهي مجمع حقائقها المعرفية، وعنوان ما يتميز به كل واحد عمّا سواه، وليس من مسلكٍ يتوسّل به الإنسان إلى منطق العلوم غير ألفاظه الاصطلاحية كأنها تقوم من كلّ علم مقام جهاز من الدوال ليت مدلولاته إلا محاور العلم ذاته ومضامين قدره من يقين المعارف وحقائق الأقوال".[1]

واللسانيات منذ دوسوسير تطورت تطورا كبيرا مما أدى إلى ميلاد مصطلحات ومفاهيم لغوية تعبّر عنها، أحيانا لا وجود لمقابل لها في اللغة العربية، أو لنقل "لا وجود لها في ذهنية الباحثين العرب ورؤيتهم، ولحل هذه القضية اتجه بعض من اجتهد في هذا الأمر إلى سلوك إحدى سبيلين:

-إما إلى ترجمة مصطلح غربي حديث بمصطلح عربي قديم.

-وإما إلى نقل المصطلح الغربي نقلا حرفيا فيلتبس على القارئ فهمه".[2]

ولأن نجاح أي علمٍ يتوقف في جانب منه على تحديد وضبط جهازه المفاهيمي، فإن ترجمة المصطلح الغربي بمصطلح عربي قديم قد يجعل من هذا الأخير غير قادر على نقل المصطلح الغربي أو استيعابه، وهذا ليس لضعفٍ فيه إنما بهذه الطريقة نجعله يعبّر قسرا عن أمرٍ لم يُخلق له، أو نحمّله ما لا يتحمّل.

ولأن النّظريات اللسانية الغربية على كثرتها فإن" نقلها إلى العربية مرتبط بمعرفة الباحث المسبقة بكلّ ألوان النشاط الذّهني الذي صدرت عنه هذه المناهج والنظريات والمدارس"،[3]لذلك يقترح منذر عياشي أن يسلك الباحث العربي في ترجمة المصطلحات الغربية أحد مسلكين:[4]

1-أن يستنبط مصطلحات جديدة لاستعمالها في مقابل المصطلحات الغربية.

2-أن يستعمل المصطلحات الغربية مكتوبة بأحرف عربية، شرط أن يُرفقها بشرحٍ بسيط ضمن قوسين أو أسفل الصفحة.

ويجب على الباحث في الحالتين أن يعتمد على:

1-نظام الصرف العربي في استخراج المصطلح.

---

[1] -قاموس اللسانيات، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م، ص 11.
[2] - قضايا لسانية وحضارية، منذر عياشي، ص 17، 18.
[3] - المرجع نفسه، ص 18.
[4] - ينظر: المرجع نفسه، ص 19.

2-وأن يسعى إلى توحيد المصطلحات ما أمكنه ذلك.

2-2-2-التعريب:

ترتبط هذه القضية "بجوهر اللغة وفلسفتها عند فريق، وهي مرتبطة بوفاء مسايرة العصر وتقنينه عند فريق، ثم، هي دواع وظيفية، أقلّها طبيعة العمل الخاص، عند نفرٍ قليل منهم".[1]

ومصطلح التعريب في الثقافة العربية يتخذ له دلالات كثيرة منها:

-هو عند العرب بمعنى اقتراب، وعمل على إصهار المقترب ليصبح من صميم النظام العربي.

-تهيئة العربية وتطويعها لتصبح بنظامها قادرة على أن تقوم بالوظائف التعبيرية التي تقوم بها لغات أخرى.

-نقل النصوص أو مصطلحات من لغة غير عربية إلى اللغة العربية، وهو ضرب من الترجمة، ويدخل في هذا الباب أيضا تعريب الأدوات التكنولوجية كالبرامج الحاسوبية مثلا لتصير قابلة لاستقبال العربية أو تحليلها.

-إدخال اللغة العربية في قطاع تهيمن فيه اللغات الأجنبية دون أن يكون للعربية حظّ في هذا المحيط، فيجعل العربية حاضرة إلى جانب لغات أخرى لا شكّ أن يدخل ضمن تحسين مكانتها وتطوير نشرها.[2]

فهذه التحديدات تعطينا فكرة واضحة عن المقصود بالتعريب من الوجهة اللسانية، وهي ما لخصّه الفهري في "تطويع وضع اللغة الداخلي، وإعادة النّظر في وضع اللغة المحيطي أو الخارجي".[3]

2-2-3-التراث والحداثة اللسانية:

مرّ أكثر من قرن على تأسيس اللسانيات كعلم قائم بذاته ولم يتخلص اللسانيون من وهم الصراع بين الأصالة والحداثة، يقول **مازن الوعر** معلّلا:" إن أساس الصراع بين الأصالة اللغوية والمعاصرة اللسانية ليس صراعا بين الأعمال اللغوية التراثية التي وضعها القدماء، وبين الأعمال اللسانية المعاصرة التي وضعها علماء اللسانيات المحدثون في الغرب. إن الصراع في جوهره يكمن بين الباحثين العرب أنفسهم (كامتداد للأزمة النفسية الفردية التي يعاني منها إنساننا العربي)، بين الباحثين الذين يشدّهم التاريخ القديم إلى أقصى مسافات اليمين، وبين الباحثين الذين يشدّهم التاريخ الحديث والمعاصر

---

[1] -اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي، رياض قاسم، 2/ 153.

[2] - المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي، عبد القادر الفاسي الفهري، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1986م، ص 158.

[3] -المرجع نفسه، ص 159.

إلى أقصى مسافات اليسار، وبهذا فإن المعادلة الثقافية تكون عرضة للاهتزاز والتفكّك، وسنحقق معاناة إقامة التوازن بين الأصالة والمعاصرة".[1]

فهذا الصراع بين القديم والحديث من الإشكالات التي أرّقت البحث اللساني العربي خصوصا والثقافة العربية عموما، وعلى هذا الأساس فإن أحد أشكال المشكلة العلمية للسانيات في العالم العربي هو التجزئة على محور القديم التراثي والحديث، وما صاحبها من صراعات بين اللسانيين ومن إهدار للطاقات، فللقديم كما الحديث موضوعاته البحثية المفصّلة، ونظرياته ومناهجه، وقد ظهرت محاولات للتوليف والدمج، لكنها محاولات قليلة تكتنف تعزيزها صعوبات ومعوقات تتصل بالتثبت المؤسسي للسانيين.[2]

2-2-4-المقارنة بهدف التأصيل:

من الإشكالات التي رافقت تلقي اللسانيات في الثقافة العربية والذي ظهر في مصنّفات الكتابة اللسانية التمهيدية فكرة المقارنة بين التراث العربي والمنجز اللساني الحديث بدافع التأصيل الذي يقوم على "تجاهل الأصول الإبستيمولوجية لكلّ علم والتي من المفروض أن ترتكز عليها القراءة".[3]

هذه المقارنة وإن كانت بهدف التأصيل فإنها تخطئ هدفها لاعتبارين اثنين:[4]

1- أن يكون متلقيها ملمًّا بالتراث اللغوي وفي هذه الحالة لن يجد داعيا للرجوع إلى اللسانيات أو تعميق معرفته بها، لأن هذا النوع من المقارنة يجعله يعتقد أن مبادئ اللسانيات هي ما حفظه وعرفه من مبادئ تراثه اللغوي، كما توحي إلى ذلك هذه المقارنات.
2- ثانيها أن يكون قارئا جاهلا بالتراث اللغوي فيجد في التطابق الوهمي الذي تحاول أن تثبته هذه الكتابات سببا كافيا لقطع أشكال التواصل مع تراثه اللغوي، لأن اللسانيات -كما تقدم له-تكفيه همّ الرجوع إلى المصنّفات النحوية.

ثالثا: في محاولة تقويمٍ لتلقي اللسانيات في الثقافة العربية:

حاولنا في الفقرات السابقة عرض اهم المشكلات والعوائق التي واجهتها اللسانيات في طريق عبورها إلى الثقافة العربية، كما أشرنا إلى أشكال التلقي وتجلياتها القائمة في كثير من جوانبها على سوء الفهم والمغالطة، لذلك فإن تحديث الثقافة

---

[1] - قضايا أساسية في علم اللسان، مازن الوعر، ص 354، 355.
[2] - ينظر: المرجع السابق، ص 359.
[3] -قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، حافظ اسماعيلي العلوي، أمحمد الملاخ، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2009م، ص 123.
[4] -المرجع نفسه، ص 123.

العربية لا يمكن أن يكون إلا من خلال مدّ جسور الحوار البناء مع الآخر، بعيدا عن كل أشكال الصراع مع النفس، إننا نتساءل هنا –يقول حافظ العلوي–: هل تتعارض اللسانيات مع التراث اللغوي العربي؟ وهل الغرب واحد متوحّد، ومن ثمة نقول إن اللسانيات تستمد أهدافها وتوجّهاتها من مخططاته؟ وهل كانت المعرفة اللسانية في مراحل تشكّلها الأولى قائمة على خدمة المصالح الغربية (الاستعمارية) كما يُعتقد؟.[1]

إن ربط اللسانيات بالغرب والاستعمار ينم عن موقف مغالط؛ لأن اللسانيات مثل كل العلوم، علم إنسانيٌّ ترسّخ من تراكمات، فالبحث اللساني إذن لا يمكن أن يكون من دون هذه التراكمات "صحيح أن اللسانيات هي نظرية غربية ولكن منطلقها الفلسفي وهدفها النّفعيّ البراغماتي لا ينتميان إلى الغرب، وإنما هما ملك حضارة الإنسان المعاصر الخارج عن نطاق الجنس والهوية والعرق، إن الاختلاف الواحد بين الأمم يكمن في كيفية استخدام نتائج علم من العلوم وتوظيفها في ناحية معيّنة، وهكذا فإن اختلاف الاستخدامات لنتائج العلم تتبع اختلافات الإيديولوجيات في العالم، أما قضية استخدام الوسائل والأساليب والتقنيات العلمية والتوصّل إلى هدف أو غاية علمية معيّنة، فإنها مسألة مشتركة بين جميع الحضارات الحديثة".[2]

إضافة إلى هذا الاعتبار الذي يجب مراعاته في كل عمليات المثاقفة، فإن أكبر هاجس للعربي في مسألة تلقي اللسانيات هو الخوف على اللغة العربية وعلى النحو العربي من اللسانيات، فاستندوا على بعض النصوص التي تحدّثت عن تميز اللغة العربية وأفضليتها ووقعوا في مغالطات في فهمها، فأغلب هذه النصوص التي تحدّثت عن هذا النوع من التمييز إنما لتثبت تفوّق العربية على بعض اللهجات، وهذا التمييز ظل غالبا على أفهام البعض، مما يجب التأكيد عليه ان العرب القدماء لم يميّزوا تمييزا واضحا بين اللغة واللهجة، وهو ما تجاوزه البحث اللساني الحديث ففي نظره كل ما يؤدي التواصل فهو لغة بغض النّظر عن القيم الحضارية والتاريخية للغات.[3]

وليس المقام مقام الاحتجاج بارتباط العربية بالمقدّس، "فهي لغة القرآن والإسلام، فهذا حق لا مراء فيه، غير أن علاقة العربية بالقرآن والإسلام لا ينفي عنها أنها لغة مثل أية لغة أخرى، إذا ما احتكمنا إلى المعايير اللغوية الخالصة، لا إلى المعايير الدينية أو الحضارية، لأن اللغات الإنسانية، طبقا للمعايير اللغوية لا تتفاضل".[4] وفي المقابل هناك تمييزات ضرورية لتفادي كل ما يؤدي إلى المغالطة، كضرورة التمييز "بين دراسة اللغة بوصفها نموذجا معيّنا....ودراسة اللغة بوصفها معطى بشريا وظاهرة كونية وهو منطلق البحث الأساسي فيما يسمى باللسانيات النظرية أو العامة".[5]

---

[1] -ينظر: المرجع نفسه، ص 30.
[2] - دراسات لسانية تطبيقية، مازن الوعر، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1989م، ص 39.
[3] - ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية بحث في إشكالات التلقي، حافظ اسماعيلي العلوي، ص 34.
[4] - دراسات في اللسانيات التطبيقية، حلمي خليل، ص 10.
[5] - اللسانيات وأسسها المعرفية، عبد السلام المسدي، ص13.

إن اللسانيات اليوم يمكنها ان تساهم في تطوير قضايا النحو وتحديثها، دون أن يكون تعارض بينها وبينه (اللسانيات والنحو)، فمما يمكن ان تقدّمه اللسانيات للنحو ما ذكره حافظ **اسماعيلي العلوي**:

-المبادئ العامة التي تقوم عليها البنيات الذهنية للغات الطبيعية، أي الآليات المعرفية والإدراكية للغة.

-الأرضية المنهجية لبناء الأنحاء، وتبرير اختيارها من حيث صياغتها وأشكالها، وعلاقتها باللغات انطلاقا من الشروط الداخلية والخارجية اللازمة في الأنحاء مثل التعميم والبساطة والوضوح.

-تساعد اللسانيات في الكشف عن حقيقة البنيات النحوية بشكل أعم وأوضح وأبسط....الخ

وخلاصة هذا أن القول بالتعارض بين النحو واللسانيات يكتنفه الغموض والتسرع، وربما لو تجاوزنا هذا العائق ما ظلت اللسانيات علما دخيلا على الثقافة العربية، وهذا لأننا تغافلنا عن أهمية تحديد المفاهيم المرتبطة بكليهما وضبطها، فلكل مفهوم خصوصيته الإبستيمولوجية وأبعاده الخاصة، فالمفهوم ليس معطى ولكنه بناء نظريّ وهو جزء من شبكة تصوّرية عامة، وبهذا نتلمس وجود فريق جوهري بين هوية النحو وهوية اللسانيات لاختلاف مناهجهما، على أنه اختلاف لا يمنع التعاون والتكامل بينهما.

خاتمة:

-إن اللسانيات غربي محض، إذ ليس من المقبول أن يسلم العربي أموره اللغوية إلى اللسانيات، وهو الذي كافح طويلا حتى يظل تراثه اللغوي صامدا لقرون عديدة، حتى بلغ درجة النّضج والكمال، وكل تفريطٍ في هذا الإرث يعدّ طمسا لمقوّماته الحضارية.

-وجد البحث اللساني العربي نفسه تبعا لعدد من الممارسات الاستشراقية التي أرادت فرض سيطرتها عليه والانحراف به عن النهج العلمي، بغية التشكيك في الجدوى التاريخية للإنتاج المعرفي في الحضارة العربية الإسلامية.

-إقصاء العنصر الحضاري من ساحة البحث العلمي أدى بالبحث اللساني الحديث إلى مواجهة الاختيار الصعب بين العربية الفصحى والعامية، وهذا الغياب أيضا أدى إلى ميلاد مشكلة ثالثة وهي مشكلة المصطلحات.

-اللسانيات في ثقافتنا العربية لازالت تبحث عن نفسها وتتلمس طريق الانطلاق، وحتى إن انطلقت في كثير من الأحيان فقد كان ذلك في طريق غير مرغوب مما يعكس افتقادها إلى مقوّمات العمل اللساني السّليم.

-لا ترتبط اللسانيات في الثقافة العربية بالإشكالات المطروحة على مستوى الفكر فحسب بل تتجاوزها إلى اللسانيات نفسها وما يرتبط بها من عوائق أو باللسانيين.

-إن الإشكالات المرتبطة بموضوع البحث اللساني في الثقافة العربية ليست إشكالات لسانيات فحسب، بل هي إشكالات محدّدات ورؤى فكرية تحتاج إلى إعادة التشكيل بطريقة صحيحة تساير تقدّم الحضارة الإنسانية في مختلف نواحيها.

بيبليوغرافيا المراجع المعتمدة:

- أزمة اللسانيات في العالم العربي، أحمد محمود عشاري، ضمن فعاليات ندوة اللسانيات وتطورها في العالم العربي، الرباط، 1987م.

- اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي، رياض قاسم، ج2.

- الثقافة العربية وعصر المعلومات، نبيل علي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 265، 2001م.

-دراسات لسانية تطبيقية، مازن الوعر، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1989م.

- دراسات في اللسانيات التطبيقية، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، 2000م.

- صورة الغرب في الكتب المدرسية اللبنانية، نمر فريحة، ضمن كتاب (باحثات)، إصدار تجمع الباحثات اللبنانيات، 1998م-1999م.

- صورة الغرب في المجتمعات العربية، المطران جورج خضر، ضمن كتاب (باحثات)، إصدار تجمع الباحثات اللبنانيات، 1998م-1999م.

- علم اللغة بين القديم والحديث، عبد الغفار حامد هلال، ط3، 1989م.

- قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، مازن الوعر، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، دمشق، 1988م.

- قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، حافظ اسماعيلي العلوي، أمحمد الملاخ، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2009م.

- قضايا لسانية وحضارية، منذر عياشي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1991م.

- قاموس اللسانيات، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م.

- الفكر العربي والألسنية، عبد السلام المسدي، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية.

- اللسانيات وأسسها المعرفية، عبد السلام المسدي، الدار الوطنية للنشر، تونس، 1986م.

- اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، مصطفى غلفان، المغرب، د ط، دت.

- اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، حافظ اسماعيلي العلوي.

- المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي، عبد القادر الفاسي الفهري، دار توبقال للنشر، ط1، الدار البيضاء، 1986م.

الندوات والمقالات:

- أهداف الاستشراق ما لها وما عليها، محمد حسين الأعرجي، مجلة المدى، العدد 31، سوريا، 2001م.

- الألسنية المعاصرة والعربية، رشيد عبد الرحمن العبيدي، مجلة الذخائر، العدد 1، 2000م.

- لسانيات الظواهر، وباب التعليق، عبد القادر الفاسي الفهري، ضمن فعاليات ندوة البحث اللساني والسيميائي، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1984م.